

٢٢ - المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الانجليزي ادورد وليم بين

للأستاذ عدلي طاهر نور

تابع لفصل السادس - عاداتهم

لا يصعب على من اختلط بمجتمع الرجال المسلمين في القاهرة - كما قد يتصور الأجنبي - أن ينال من غير زواج أدق المعلومات الكثيرة عن شئون النساء وعاداتهن ؛ فأغلب رجال الطبقة الوسطى المتزوجين والقليل من الطبقة العليا يتحدثون طوعاً عن مسائل الحريم إلى من يصرح لهم باستحسانه آراءهم في الأخلاق ولا تعتبر الزوجة - على العموم - معتقة في الحريم ، لأنها تكاد تكون مطلقة الإرادة في الخروج ، وزيارة الصديقات ، واستقبال الضيفات ؛ ولا جرم أنه ليس للجوارى هذا الاختيار ، إذ هن سواء خضعن للزوجة كما يخضعن للسيد ، أو للسيد فقط ، تحت سلطة لا أحد لها تقريباً . ومن أم ما يرى إليه رب الدار بتخصيص حريم منفصل أن يتلاقى رؤية الخدم وغيرهم من الرجال لنسائه دون نقاب كما ينص الدين . وتبين الآية التالية أنه يجب على المسلمة أن تخفى عن الرجال ، خلا بعض الأثارب وغيرهم ، ما يلفتهم إلى شخصها أو زينتها : (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن إلا ليمولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ... (١)) ؛ ويشير النص الأخير إلى عادة رن (الخللخال)

(١) سورة النور الآية ٣١ .

الذي كان يستعمله نساء العرب في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ولا يزال المصريات يتخيلن به (١)

ويجب على أن أذكر هنا تعليقين لمفسرين قاصلين (٢) مدرجين في ترجمة سيل Sale للقرآن توضيحاً للآية السابقة ، حتى لا تؤدي إلى فهم العادات التأخرة الخاصة بدخول الحريم أو عدمه فهما خطأ . والتعليق الأول خاص بكلمة (أو نسائهن) وقد شرحت كما يلي : « أي السلعات ، ويرى البعض أن سفور المؤمنة أمام الكافرة مخالف للشرع أو للحشمة على الأقل ، إذ لن تصف الكافرة عن وصفها للرجال . ويفترض الآخرون أن هذا الاستثناء يشعل النساء جميعهن على العموم ، وتختلف آراء العلماء في هذا الموضوع » . ولا يعتبر الآن - في مصر وفي كل بلد إسلامي آخر على ما اعتقد - دخول امرأة من أي طبقة أو من أي دين حريم المسلم أمراً مخالفاً

ويتعلق الشرح الآخر بجملة (ما ملكت أيمانهن) : « يشمل هذا الاستثناء جميع الأرقاء من الجنسين ، ويكاد يرى البعض الخدم غير الأرقاء مثل هؤلاء المتعين إلى شتم آخر . ويروي عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه أهدى صبيته إلى ابنته فاطمة عبداً ، وعندما أحضره أمامها لم تكن متداخلة بشوب ضاف ، فكان لا بد أن ترك رأسها أو قدمها مكشوفاً ؛ فقال لها الرسول صلى الله عليه وسلم حينما لحظ ارتباها كما : أن لا تهم ، لأنها ليست في حضرة أحد غير أيها وعبداها » . وقد يكون الحال كذلك اليوم عند عرب الصحراء ، ولكن لم يلفتني قط أنه يسمح للعبد البالغ في مصر أن يرى حريم رجل فاضل سواء كان العبد في خدمة الحريم أولاً . وقد أكد لي أنه لا يسمح بذلك أبداً . وقد يكون سبب منح القرآن عبد المرأة هذا الامتياز استحالة الزواج به ما دام عبداً لها ؛ ولكن ليس هذا موجباً لمنحه حق المخول إلى الحريم في مثل هذا المجتمع . ومما يستحق الاعتبار أن الآية السابقة لم تمنح الأعمام حق رؤية بنات الأخ أو الأخت مكشوفات الوجه . ويرى البعض أنهم ليسوا

(١) أظهر إشعيا ١٦/٣ « وقال الرب : من أجل أن بنات صهيون يتناغفن وعينين ممدودات الأعتاق وفاضرات بيوتهن وخطرات في مشيهن ويغضضن بأرجلهن

(٢) والتعليقان لليضوي وجلال الدين - أظهر ترجمة سيل Sale للقرآن ص ٢٦٦

أهلاً لتلك خشية أن يصفوهن إلى أبتائهم ، ولا يلحق بالرجل أن يصف سحنة امرأة أو شخصها ، (كأن يقول أن لها عيني نجلوين وأثفاً مستقباً وفكصيراً الخ) إلى من يحرم عليه رؤيتها . ولا عيب في وصف المرأة وصفاً عاماً مثل قولك : « إنها فتاة لطيفة مكحلة بالكحل ومغضبة بالخلاء »

ولا يسمح للرجل عامة أن يرى غير زوجته وجواربه . ومن حرم من عليه لعزاة أو رضاعة بدون نقاب^(١) . وقد أشرت في الفصل الأول إلى قدم عهد النقاب ، كما ذكرنا أيضاً أن المصريات يعتبرن تغطية أعلى الرأس ومؤخره أزم من تغطية الوجه ، وحجب الوجه أهم من حجب أغلب أجزاء الجسم الأخرى . فالمرأة التي لا يمكن حجبها على كشف وجهها أمام رجل قد لا تحجب من الكشف عن صدرها أو ساقها . وهناك حقيقة كثيرات من الطبقة السفلى يظهرن دائماً سافرات أمام العامة ، ولكنهن مدفوعات إلى ذلك لفقرهن ولصعوبة إحكام الطرحة - التي ينذر أن تتجرد منها امرأة - فوق الرأس لتجمل محل البرقع ؛ وخاصة إذا شملت كلتا اليدين في تقيت ما يحملن من الأقال . وتسرع المرأة الجليلة عند ما يصادفها رجل - مكشوفة الوجه أو الرأس - بلبس الطرحة أو إحكام وضعها ؛ وكثيراً ما تصيح : « يادهوق ! أو يا ندامي ! » . ولكن كثيراً ما يدفع الدلال المرأة المصرية إلى كشف وجهها أمام الرجل متظاهرة أنها فعلت ذلك عفواً أو ظنت أنها لا تراه . وقد ينعم الرجل أيضاً برؤية وجه بيبة مصرية أحياناً - بينما هي تعتقد حقاً أنها بيبة عن الأنظار - من شباك مفتوح أو فوق مطبخ . ويوجد في القاهرة منازل صغيرة ليس لها غرف سفلى لاستقبال الضيوف من الرجال فيصعد هؤلاء إلى الدور الأعلى صائحين صراراً : « دستور ! ياساترا ! » أو ما شابه ذلك لينهوا من يصادفون من النساء في الطريق لينسجن أو يمتحن ، فتسخر المرأة فضلة من طرحها أمام وجهها لإعينا واحدة . ويصل شعور النسولين بجرمة النساء إلى درجة غريبة ، حتى أنه يحرم على الرجال دخول بيوت بعض النساء ؛ فلا يسمح مثلاً لغير النساء بزيارة زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم وغيرهن من أسرته في مدائن المدينة . ولا يدفن الرجل

والمرأة في قبر واحد أبداً إلا إذا فصل بين الجنتين حائط . ويوجد مع ذلك من لا يهتم كثيراً بهذا الأمر وإن قل عددهم . ولدى صديق مسلم من هؤلاء يسمح لي على العموم أن أرى أمه عند ما أذهب لزيارته . وأمها أرملة في الخمسين من عمرها تقريباً ، ولكن ضخامة بدنها ودلالة سيهاها على عدم الكبر يجعلانها في سن الأربعين . وتقبل عادة إلى باب غرفة الحرم حيث أستقبل نخلو المنزل من غرف سفلى للاستقبال ، وتجلس هناك على الأرض ، ولكنها لا تدخل الغرفة أبداً . وقد تكشف أحياناً وجهها تماماً كما لو كان الأمر عرضياً ، فتبدو عيناها وقد أحاط بها الكحل الكثير ، كما أنها لا تحاول أن تخفي حليها الماسية والزمردية وغيرها ، بل على العكس من ذلك تحاول إبرازها . ولم يسمح لي صديقي برؤية زوجته أبداً مع أنه أذن لي بمحادثتها مرة في حضوره خلف زاوية في عمر أعلى السلم

وأعتقد أن نساء مصر لا يضيق عليهن بالشدة الشاهدة في البلاد الأخرى الخاضعة للباب العالي ؛ ولذلك ليس من غير المعتاد أن ترى نساء الأوشاب يتدللن ويمزحن مع الرجال علناً ، والرجال يضعون أيديهم عليهن دون حرج . وقد يُظن أن نساء الطبقتين العليا والوسطى يشمرن بالجور والتعاسة في عزلتهن ، ولكن ليس هذا هو الحال عادة ، بل على العكس نلاحظ أن الزوجة المصرية التي تتلاق بزوجها قد تظن ، إذا أطلق لها زوجها الحرية أنه يهملها ولا يحبها كثيراً ، ويحسد أولئك اللاتي يخضعن للرقابة الدقيقة

وليس من المألوف أن يتزوج للمصري بأكثر من امرأة ، أو يتبرى بأكثر من جارية ، مع أن الشرع يبيح له أربع زوجات كما أشرت قبلاً ؛ والتسرى ، طبقاً للرأى الغالب ، حسب رغبته . إلا أن الرجل وإن اقتصر على زوجة واحدة يمكنه أن يبدل كيف شاء . وواقعياً ليس هناك كثيرون في القاهرة لم يطلقوا امرأة إذا طال أمد الزواج . ويستطيع الزوج أن يطلق زوجته وقتاً يريد بقوله : « أنت طالق » . فإذا استقرت إرادته على ذلك عن صواب أو عن غير صواب ، وجب على المرأة أن تعود إلى أهلها أو صديقاتها . وترفض المرأة لطلاق لا تستحقه مصدر لأخزان وتلق أشد مما تتعرض له من أي اضطراب آخر . وقد تصيب

(١) - ويسمح للأهوات أن يروا وجه النساء وكفهن الخ

الآن ردها إليه لتميش منه كزوجة على خلاف الشرع . وأنكر المدعى عليه الطلاق ؛ فسأل القاضي المدعية : « هل لديك شهود » فأجابته « عندي شاهدان » ، وكافا هما الرجلين الذين شاهدا الحادث في القهى . فقررنا أن المدعى عليه طلق امرأته ثلاثاً في حضرتهما . فأكد المدعى عليه أن التي طلقها في القهى كانت امرأة أخرى ، ولكن المدعية نفت وجود زوجة أخرى . فلفت القاضي نظرها إلى استحالة معرفتها ذلك ، وسأل الشاهدين عن اسم المرأة التي طلقها الرجل أثناء وجودهما ، فأجابا أنها مجهلان اسمها . فطلب منهما أن يقسا إذا استطاعا أن المدعية هي المرأة المطلقة أمامهما . فأجابا أنها لا يستطيعان ذلك لأنهما لم يريا المرأة ساقرة أبداً . فرأى القاضي إزاء ذلك أن يرفض الدعوى . وأجبرت المرأة على العودة إلى منزل زوجها . كانت تستطيع أن تطلب حضور المرأة التي اعترف الرجل بتطبيقها في القهى ، لكن كان من السهل أن يحضر امرأة تقوم بالدور المطلوب ما دام لا يطلب منها وثيقة الزواج . وفي مصر يعقد الزواج دائماً من غير كتابة ، ومن غير شهادة أحياناً .

عبد الله طاهر نور

لذلك في حالة عوز شديد . وهذا التمرض يبدو طبيعياً على العكس تماماً لأوثك اللاتي يأملن تحسين حالتهم . ويستطيع الرجل أن يطلق زوجته مرة . أو مرتين ويردها إليه في كل مرة من غير حفل . ولكنه لا يستطيع أن يردها شرعاً في المرة الثالثة قبل أن تزوج رجلاً آخر وتطلق منه ، وهذا بعينه نتيجة الطلاق ثلاثاً المبرر عنه في جملة واحدة : « أنت طالقة بالثلاثة » . ولكن قد يتفق الرجل والمرأة على مخالفة الشرع ، أو ينكر الرجل أنه أوقع عيّن الطلاق . وتجد المرأة في الحالة الأخيرة صعوبة كبيرة في تنفيذ الطلاق قانوناً إذا أرادت ذلك

وأذكر لتوضيح هذا الموضوع قضية أدخل فيها أحد معارفي شاهداً على عيّن الطلاق . فقد كان جالساً في مقهى مع رجلين آخرين كان أحدهما قد غضب على امرأته لشيء قلته أو فعلته . وأرسل هذا بعد حديث قصير في هذا الأمر يدعو زوجته التي أوقع عليها عيّن الطلاق ثلاثاً وأشهد زميليه على ذلك . ولكنه سرعان ما ندم على فعله وأراد أن يعيد مطلقته ، فرفضت العودة إليه ولجأت إلى (شرع الله) فقدمت القضية إلى المحكمة وقررت المدعية أن المدعى عليه أوقع عليها الطلاق ثلاثاً ويريد

صدر حديثاً

الكف وأمرار النفس

لمؤلفه أحمد المنوسى

إخصائى الحالات النفسية

يحوى أحدث تطورات علم الكف به خرائط واضحة تجعلك بسهولة تترجم خطوط الكف فتكشف بنفسك عن إعجابات خطوط يدك . تعرف ما يهددك من الأمراض وتبصير طرق الوقاية منها ، وما يسبب لك اللغائقات والمقبات وتغشى عليه . وبذلك يكون لك القدرة على تحية مواهبك واستمداداتك تصبح قادراً على السير في الطريق التي تكفل لك الطمأنينة والنجاح في الحياة . يطلب من المؤلفت ٣٣ ش للملكة الفريدة ومن المكاتب الشهيرة ثمن النسخة ٥٠ قرشاً و ٣٠ قرشاً للبريد داخل القطر وه للخارج .

يصدر قريباً كتاب

في صابغة اللغة العربية

« من شعر أبي تمام »

ويشمل المقرر في امتحان الترقية إلى الثانوى في النصوص من شعر أبي تمام والقصائد الخمس الأولى من اللغزيات مضبوطاً ومشرحاً وشرحاً وافياً ومعلقاً عليه مع دراسة مفصلة لشعر أبي تمام وخصائصه بقلم :

محمد محمود رضوان

الثمن ١٠ قروش صاغ ترسل باسم المؤلف بمدرسة بنى سويف

الابتدائية الأميرية